



جامعة القرويين

كلية أصول الدين

-تطوان-

بسم الله الرحمن الرحيم

المقاصد الشرعية والهوية الأخلاقية للإنسان عند المفكر د . طه

عبدالرحمان

بقلم الدكتور أحمد مونة

تتبوأ مساهمات المفكر الدكتور طه عبدالرحمان في مجال الفلسفة بشعبها كما في مجال
الأصول مركز الصدارة ضمن المقاربات التجديدية لهذين الحقلين وذلك لما تتسم به هذه
المساهمات من دقة في النظر ومن عمق في التحليل ومن ابداع لا يضاهاى في التععيد
والاستدلال والبناء . وفي سياق القراءة التالية لموضوع المقاصد الشرعية (1) سنعمد الى
الكشف عن وجوه الجدة والابداع في مقاربة الدكتور طه عبدالرحمان للدرس الأصولي عموما
ولنظرية المقاصد الشرعية على وجه الخصوص .



جامعة القرويين

كلية أصول الدين

-تطوان-

1 . المادة المقاصدية ومفهوم التأسيس :

تتواطأ الدراسات الأصولية برمتها على اعتبار الإمام أبي إسحاق الشاطبي مؤسساً لعلم المقاصد ، وهي المسئلة التي سيعتمدها الدكتور طه عبدالرحمان مدخلا لاستشكال مفهوم التأسيس في هذا السياق . فلئن كان يسلم بوضع هذا العالم الفذ لعلم المقاصد ، واشتهار المقاصد بنسبتها إليه ، فإنه لا يسلم بحصر معنى التأسيس في جعل المقاصد قسماً متميزاً من أصول الفقه ، ومرد ذلك دخول موضوع هذا العلم تحت أبواب علم الأصول بحسب وضعه الإصطلاحي ، ومن تم فالتأسيس الذي يتلاءم ونظرة الدكتور طه الى التراث يقوم على إنشاء صياغة جديدة لأصول الفقه تروم " تحقيق المزيد من الأحكام المنهجية والاشتمال المضموني " (2) والتي تفضي في نهاية المطاف الى بناء نسق متداخل يحقق وجهاً من وجوه التكامل الذي لم ينتبه إليه الأصوليون الذين سبقوا الامام الشاطبي .

وفي سياق تدليله على الكفاية النظرية والإجرائية لهذا الضرب من التناول في بيان قلق التقسيم الأصولي للمصالح وفي الوقوف على اوجه التداخل بين علمي الأخلاق والأصول في موضوع المقاصد ، صدر الكاتب عن مرجعية لغوية تتخذ من مادة "



جامعة القرويين

كلية أصول الدين

-تطوان-

قصد " مدخلا اساسيا لتجديد النظر في المادة المقاصدية ، على نحو تنفتح معه امكانية وضع تقسيم جديد لهذه المادة ، توفي منطقيا بشرط تمام الحصر ، وبشرط التباين ، وبشرط التخصيص كما سيأتي بيانه ، ومضمونيا بحقيقة التأسيس الأخلاقي لهذه المادة في شموليتها .

2 . المقصودات والقصود والمقاصد مداخل النظر المتجدد :

أ - يفيد الفعل " قصد " معنى تحصيل فائدة من الكلام ، أي تحصيل المضمون الدلالي للقول . ويجمع على مقصودات وهي التي تناولها الشاطبي في كتابه "الموافقات " تحت عنوان " وضع الشريعة للإفهام " .

ب . يفيد الفعل " قصد " كذلك معنى تحصيل نية القيام بالفعل ، اي تحصيل المضمون الشعوري أو الإرادي ن ويجمع على قصود . وهي التي عالجه الشاطبي تحت عنوان (مقاصد وضع الشريعة للتكليف) و (مقاصد وضع الشريعة للإمتثال) وأخيرا ضمن عنوان (مقاصد المكلف) .

ج . يفيد الفعل قصد معنى تحصيل غرض من الأغراض ، أي تحصيل المضمون القيمي ، متى تحقق الباعث المشروع على فعل الشيء ، ويجمع على مقاصد . وهي



جامعة القرويين

كلية أصول الدين

-تطوان-

التي عالجهما الشاطبي تحت عنوان (مقاصد وضع الشريعة ابتداء) (3) .
في ضوء هذه التحديدات غير المسبوقة ، شرع الكاتب في بيان أوجه التداخل بين
علمي الأصول والأخلاق ، وفي التدايل على شمولية هذا الأخير للفقهاء وأصوله ،
انطلاقاً من كشفه عن الأوصاف الأخلاقية لكل من المقصودات والقصود والمقاصد .

3 - المضامين الأخلاقية للمقصودات الشرعية :

تختص المضامين الأخلاقية للمقصودات الشرعية عند الدكتور طه بصفتين أساسيتين
، هما الصفة المعنوية والصفة الفطرية . فبمقتضى الصفة الأولى تتكشف للناظر
استقلالية المقصود الشرعي كمدرک عقلي يؤخذ من مفهوم النص كما يؤخذ من
منطوقه . وهو الذي ينزله الكاتب منزلة المعنى اعتباراً لاتصاله بالقيمة العملية التي
يفرزها والتي يتم بمقتضاها إخراج المقصودات الشرعية من دائرة التصورات
المجردة وادخالها في دائرة الاخلاق على نحو يصبح معه هذا المقصود في أساسه
مقصوداً أخلاقياً . وبمقتضى الصفة الثانية سيتسنى للمكلف تحصيل القيم الخلقية في
أعمال التقرب وفق مقتضيات الفطرة ، وتعد الممارسة المدنية للتشريع في نظر
الدكتور طه والتي انبنت على المعاني الاخلاقية للممارسة المكية ، أعظم ساعد على



جامعة القرويين

كلية أصول الدين

-تطوان-

تشبع المقصودات الشرعية بالصبغة الفطرية (4) .

4 - المضامين الأخلاقية للقصود الشرعية :

تنسم القصود الشرعية عند الدكتور طه بصبغتين اثنتين اولاهما :

الصبغة الارادية لهذه القصود ، وثانيتها صبغتها التجريدية .

فإذا كانت الاولى تقوم على الجمع بين ارادة الشارع الآمرة وارادة المكلف الامتثالية ،

فإن الثانية تقوم على تحصيل المكلف (للتجرد عن الأغراض التي قد تلابس هذا

الفعل الامتثالي بمعنى تحصيله للنية الخالصة ، وتعتبر قاعدة (سد الذرائع) بهذا

الصدد نموذجاً صريحاً في بيان كيفية انبناء الأحكام ن في هذا الضرب من الاستدلال

على النوايا والقصود) (7) .

5 - المضامين الأخلاقية للمقاصد الشرعية :

تنحصر المضامين الاخلاقية لهذه المقاصد - عند الدكتور طه - في صفتين أساسيتين :

الصفة الحكمية والصفة المصلحية ، ففي الاولى تنزل الغاية التي تفتنر بالحكم

الشرعي - حسب الكاتب - منزلة القيمة التي يسعى المكلف للتحقق بها عملياً ، والتي

تستحيل حكمة (ببلوغها أعلى درجات الاتقان والكمال) (8) .



جامعة القرويين

كلية أصول الدين

-تطوان-

ولقد اسهم الوعي بهذا المسلك المنهجي في تعليل الأحكام إلى حد بعيد - حسب الكاتب - في ظهور فريق من الاصوليين يقدمون التعليل بالحكم والغايات على التعليل بالأوصاف والأسباب ، لان الاولى تتأسس في نظرهم على (أحكام قيمية وسنن معنوية وعلى ربط الاسباب بفاعلها) ، بينما تقوم الثانية على (قوانين موضوعة وعلى ربط الأسباب بالمسببات) (9) .

ولعل امثل المسالك في التعليل - حسب د. طه - هو ذلك الذي يقوم على المزاجية بين المسلكين السالفين ، أي بين التعليل السببي والتعليل الحكمي ، بحيث يكون التعليل الاول موقوفا على التعليل الثاني ، أي على حصول الغاية من الحكم على نحو يكون معه التعليل السببي مشروطا باستيفاء شرط الغاية ، واكثر من اخذ بهذا المسلك الجامع في التعليل - حسب الكاتب - هم اصوليو المدرسة المالكية . أما بخصوص الصفة الثانية وهي مصلحة المقاصدة الشرعية ، فيذهب د. طه الى ان الاصل في هذه الصفة هو (الخلق) وذلك لمجيئها على وزن دال على اسم المكان (مفعلة) . فالمصالح بهذا الاعتبار هي المواضع المعنوية التي يحصل فيها الانسان على صلاحه (10) ، وما دامت كذلك فهي ذات وظيفة اخلاقية صريحة ، لا مجرد منفعة مادية



جامعة القرويين

كلية أصول الدين

-تطوان-

صرفة . وهكذا ينتهي الكاتب الى وضع الاصبع على على وجه التداخل بين الاصول والاخلاق في دائرة المقاصد الشرعية ، وذلك من خلال وقوفه على التداخل الدلالي القائم بين حدي الصلاح والأخلاق . فإذا كان حد الصلاح في الاصل يعود الى كونه قيمة خلقية ، فان حد الاخلاق عنده هو انها تبحث في الصلاح .وبذلك يكون علم المقاصد في نظر د. طه هو الصورة التي اتخذها علم الاخلاق للاندماج في علم الاصول اندماجا داخليا . فماذا عن الصيغة التي يفيد بمؤداها علم الاخلاق الحكم الشرعي عن جهاته الثلاث ، أعني من جهة المقصود ومن جهة القصد ومن جهة المقصد . يسجل د. طه بصد المسألة الاولى ان هذه الافادة في الاصل قائمة على ما تقرر سالفا من حقائق حول نبناء الاحكام على مقتضى الفطرة ، والتي تأخذ في نهاية المطاف صورة القاعدة التقويمية للسلوك ، انطلاقا من كون الحكم الشرعي يروم اساسا النهوض بتقويم الاخلاق . اما بخصوص افادة الاخلاق للقصد الشرعي ، فيذهب الكاتب الى ان تواطؤ الاصوليين على اعتبار العمل المشروط باستحضار قصد التقرب كاف في الدلالة على تغلغل النظر الاخلاقي في معايير الاحكام الشرعية عموما ، لتوقف هذه الاحكام على الاتيان بشرائطها الاخلاقية . اما فيما يتعلق بافادة



جامعة القرويين

كلية أصول الدين

-تطوان-

الاخلاق للمقصد الشرعي ، فيقرر الكاتب ان الاخذ بمعيار المصلحة في تحليل الاحكام ، هو دليل على اخذ الناظر بالعلل الغائية لها . ومتى ثبت كون هذه الأخيرة هي عبارة عن قيم أخلاقية في الاصل صح معه القول بانطواء كل حكم شرعي على قيمة اخلاقية ن وحسبنا شاهدا على حضور التداخل على هذا المستوى - يقول الكاتب - تصريح الامام الشاطبي في كتابه الموافقات بالقول (كل مسألة مرسومة في اصول الفقه لا ينبنى عليها فروع فقهية او اداب شرعية او لا تكون عوناً في ذلك فوضعها في اصول الفقه عارية (11) .

6 - البنية الفقهية والبنية الاخلاقية للحكم الشرعي أي علاقة

يفضي القول بالتداخل بين علمي الأصول والأخلاق من الجهات الثلاث ، الى التأكيد على شمولية نسبة الاخلاق لأصول الفقه - حسب د. طه - وذلك بحكم (الاقتران الحاصل بين الحكم الشرعي واصله الأخلاقي) (12) وهو الأمر الذي يفضي بدوره الى القول بوجود بنيتين متشاكلتين للحكم الشرعي ، بنية فقهية وبنية أخلاقية ، الأولى تصف بكونها :

أ - ملزمة الزاماً مراقباً مراقبة مادية عن طريق الوازع الشرعي الخارجي ، في مقابل



جامعة القرويين

كلية أصول الدين

-تطوان-

البنية الأخلاقية التي تخضع للوازع النفسي الذاتي .

ب - تضبط من السلوك ظاهره ، في مقابل البنية الاخلاقية التي تتوسل بالتعليل الغائي في بيان الاحكام وترتيب بعضها على بعض (13) .

في ضوء هذا التشاكل القائم بين البنيتين السالفتين يتضح - حسب الكاتب - أن الصورة الفقهية تنبني أساسا على محددات خارجية تتلخص : في الالزام المادي وظاهر الاعمال والتعليل بالاسباب ، في مقابل انبناء الصورة الاخلاقية على محددات داخلية هي : الالزام المعنوي وباطن الاعمال والتعليل بالغايات .

بمقتضى هذه الحقائق نقول ، ليس من سديد النظر اعادة الاعتبار للهوية الاخلاقية للانسان بما يبونها مركز الصدارة ضمن آليات التدليل الشرعي ، وبما يحقق لها حضورا متميزا داخل نطاق المصالح الشرعية المعتمدة خاصة ، وهو ما يعد غائبا الى بعيد حد في التقسيم المشهور الذي يرتب المصالح بحسب اهميتها الى ضرورة وحاجية وتحسينية ، في اجابته على هذا الاشكال يؤكد - د طه - ان ليس ثمة ما يمنع من وضع تقسيم جديد للمصالح يوفي من جهة بشرط تمام الحصر ، اذ حصر المصالح الضرورية في اجناسها الخمسة وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال لا



جامعة القرويين

كلية أصول الدين

-تطوان-

يوفي بهذا الشرط لامكان اندراج العرض والعدل تحت هذا الضرب من المصالح (14) ، ويوفي بشرط التباين ، لان التقسيم الشائع لا يجعل العنصر الواحد من هذه المصالح مباينا لما عداه من العناصر الاخرى مثل (حفظ النفس وحفظ العقل) (15) ، ويوفي كذلك بشرط التخصيص لأن هذا التقسيم لا يجعل كل عنصر من هذه العناصر (الدين مثلا) اخص من الاصل المحصور الذي هو (الشريعة) . هذا بالاضافة الى انزاله مكارم الاخلاق منزلة المصالح التحسينية التي هي ادى رتبة من المصالح الحاجية والمصالح الضرورية ، وهو ما يوهم بإمكانية الاستغناء عنها اعتبارا لطبيعتها الكمالية .

7 - المصالح الشرعية في المشروع التجديدي للدكتور طه عبدالرحمان :

تتخذ معالم التقسيم الجديد الذي يؤسس له د . طه ضمن دائرة النظرية الاخلاقية الاسلامية التي يجملها في مقولة (الانسان حيوان اخلاقي) (16) الشكل التالي :

أ - قيم النفع والضرر أو المصالح الحيوية : وتشمل كل المعاني الأخلاقية التي تنقوم بها المنافع والمضار التي تحقق عموم البنيات الحسية والمادية والبدنية ، مثل المصالح الموجبة لفظ النفس والصحة ... والمال . (17)



جامعة القرويين

كلية أصول الدين

-تطوان-

ب - قيم الحسن والقبح أو المصالح العقلية ، وتعم المعاني الأخلاقية التي تتقوم بها المحاسن والمقابح التي تمس البنيات النفسية والعقلية ، مثل المصالح المحققة للأمن والحرية ... والحوار .

ج - قيم الصلاح والفساد أو المصالح الروحية : وهي المعاني الأخلاقية التي تتقوم بها كل المصالح والمضار التي تطرأ على عموم القدرات الروحية والمعنوية ، مثل المصالح المفضية الى الاحسان والرحمة ... والتواضع (18) .

يلزم على هذا التقسيم حسب د . طه نتيجتان أساسيتان :

الأولى : وتتعلق بتكاثر القيم التي يتقوم بها الحكم الشرعي ، إذ يجوز أن يكون تحريم القتل بحسب هذا التقسيم مناطا بمصلحة (حفظ الحياة وهي قيمة حيوية ، وبحفظ المجتمع الانساني وهي قيمة عقلية ، وبحفظ النفحة الربانية وهي قيمة روحية) (19) .

الثانية : وتتصل بأولوية القيم الروحية في مقابل القيم الحيوية والقيم العقلية اللتين شاع اعتبارهما عمدة في التقسيم المشهور ، نظرا لكون القيم الروحية ابلغ في الدلالة على تغلغل التوجه الاخلاقي الذي يؤسس للمقاصد من غيرها (20) .



جامعة القرويين

كلية أصول الدين

-تطوان-

في ضوء هذه القراءة ن يتضح لنا أن المنحى التجديدي الذي رسمه هذا المفكر الكبير للدرس الاصولي ، والذي يناضل - منذ عقود - من أجل ارساء دعائمه وتشبيد بنياته بادوات منهجية مألوفة ، بالغة الدقة والصرامة ، وبعد معرفية عميقة في مضامينها غنية في تنوعها ، يعد مساهمة مركزية ونموذجية في أفق انجاز مشروع يلم شمل جميع المباحث الأصولية على النحو الذي راكمه هذا العالم المجدد في أعمال سابقة ، نخص بالذكر منها - بالاضافة الى ما نحن بصدد - محاضراته القيمة في الاستدلال الاصولي (21) ، ومبحث (التعريف اللزومي للدلالة الأصولية) (22) ، لان من شأن هذا الإنجاز العمل على اخراج بعض وجوه الممارسة الفقهية والاصولية في ظرفنا الراهن من فوضى إرسال الاحكام المبتسرة ، على اجزاء عريضة من هذا التراث ، دونما وعي تام بتداخل العديد من الحقول المعرفية في تشكيل عناصره ، وليس من شك في أن مساهمة المفكر الدكتور طه عبدالرحمان في تسديد نظرتنا الى هذا التراث تعد رائدة في بابها عميقة في منطقتها ودلالاتها .



جامعة القرويين

كلية أصول الدين

-تطوان-

الهوامش:

- 1 - د طه عبدالرحمان - تجديد المنهج في تقويم التراث - ص 97 - 114 . المركز الثقافي العربي بيروت / البيضاء 1994
- 2 - نفسه - ص 97
- 3 - نفسه .
- 4 - نفسه ص 100 .
- 5 - نفسه ص 101 .
- 6 - ص 101
- 7 - انظر ابن القيم الجوزية إعلام الموقعين عن رب العالمين ج 3 ص 96 دار الحديث العلمية / بيروت / 1991
- 8 - طه المرجع السابق ص 101
- 9 - ن ص 102 . وانظر كذلك محمد مصطفى شلبي / تحليل الاحكام / ص 130 - 138 . دار النهضة بيروت / 1989
- 10 - ن ص 103 .



جامعة القرويين

كلية أصول الدين

-تطوان-

- 11 - ن ص 103 وانظر الشاطبي / الموافقات في أصول الاحكام / ج 1 ص 18 در الفكر . د ت
- 12 - ن ص . 106 .
- 13 - نفسه 107
- 14 - نفسه 111
- 15 - نفسه
- 16 - انظر طه عبدالرحمان / سؤال الأخلاق - مساهمة في النقد الاخلاقي للحدائثة الغربية / المركز الثقافي العربي - 2000
- 17 - طه عبدالرحمان - تجديد المنهج - ص 113 .
- 18 - ن ص 114 .
- 19 - نفسه .
- 20 - انظر المرجع نفسه .
- 21 - القيت هذه المحاضرات بكلية الآداب جامعة محمد الخامس - أكذال - الرباط موسم 1989/1990 م
- 22 - انظر طه عبدالرحمان / اللسان والميزان أو التكوثر العقلي / ص 101/ 130 . م . ث . ع . 1998 .